

## الإنسان الكامل والإمامة في التسع الإثني عشري

شهرزاد هوشمند زاده

الجامعة البابوية الغريغورية (روما - إيطاليا)

### المقدمة

لا تهدف هذه الورقة إلى تقديم المذهب الشيعي الإمامي الإثني عشري بعقائده وأصوله وتاريخه، فتلك مهمة تصدّت لها المجلدات الضخمة. كما لا تسعى هذه الورقة إلى الدفاع عن "إسلام" الشيعة وإثبات انتمائهم إلى الأمة الإسلامية، وإيمانهم بالله الواحد، وبنبيه الخاتم محمد صلى الله عليه وآله وسلم، وبالقرآن وأنه قرآن واحد لا غير، والإيمان ببقية الأصول المعروفة والمتفق عليها بين المسلمين. فلمهمة "التقريب بين المذاهب" أدبيات كثيرة وتعمل لأجلها مؤسسات متخصصة.

مهمة هذه الورقة أكثر تواضعاً من كل ذلك، وهي التأكيد على "الاختلاف" كحق إنساني وكمكسب إيجابي، ومظهر من مظاهر الرحمة الإلهية، كما جاء في الحديث "اختلاف أمتي رحمة". من دون الوقوع في الحرج، أو اللجوء إلى المجاملة، بالتستر وراء المتفق عليه والسكوت عما نظن أنه يُزعج الآخر المختلف.

المنهج المتبع في هذه الورقة هو منهج تحليل النصوص، خاصة تلك المتأتية من أدبيات الدعاء والزيارات، وهي أدبيات واسعة لدى الشيعة، وتمثل خاصية من خصائص تدينتهم. والمقصود بأدب الزيارات النصوص التي تتلى من قبل المؤمنين الذين يزورون مقامات وأضرحة الأئمة والصالحين في المدينة والنجف وكربلاء وقم ومشهد وسامراء وغيرها من العتبات الشريفة. ميزة هذا الأدب، وهذا هو سبب اختياره هنا، أنه يجمع بين التدين الشعبي التقوي وبين التدين النخبوي الحوزوي. هذا ناهيك عن رسوخ هذه الأدبيات في ذاكرة الأجيال، حتى غدت جزءاً هاماً من الهوية الدينية للشيعة الإثني عشرية<sup>(1)</sup>.

فما هو الفرق إذن، وفقاً لهذه الرؤية، بين التسنن والتشييع؟

أصل الاختلاف بين السنة والشيعة يكمن في مسألة الإمامة، التي غدت عند الشيعة أصلاً من أصول الدين وركناً من أركان الإيمان. هذا من حيث المضمون، أما من حيث الشكل، فللخطاب الشيعي خصائصه الأسلوبية المميزة، كما سيتبين لاحقاً من خلال النصوص، فهو خطاب أقرب إلى لغة المتصوفة الرمزية.

### الإمامة أساس التشيع:

ترجع نقطة الخلاف الأساسية بين أهل السنة وشيعة آل البيت، كما سبقت الإشارة، إلى القول بالوصية والإمامة. والوصية تعني أن النبي محمد - صلى الله عليه وسلم وآله - قد وصى بالخلافة والإمامة لعلي بن أبي طالب، ابن عمه وزوج ابنته فاطمة الزهراء، وذلك بنص بين جلي أو

(1) جرى الاعتماد في هذه الدراسة على كتاب "كليات مفاتيح الجنان"، للشيخ عباس القمي (المتوفى سنة 1359 هـ)، قم: دفتر نشر نويذ قم، 1380 هجري شمسي. وهو كتاب جمع فيه مؤلفه أهم الأدعية والزيارات المتعاقبة عبر العصور، بعضها منسوب إلى الأئمة أنفسهم، وبعضها الآخر إلى كبار علماء المذهب. وهو كتاب واسع الانتشار وكثير الاستعمال لدى الشيعة. وسيسار له اختصاراً لاحقاً بـ: مفاتيح.

بنصّ خفيّ حسب المذاهب. وظلّت الإمامة في نسل علي جيلا من بعد جيل. ويعتمد الشيعة في القول بالوصيّة على حديث روته المصادر الشيعية والسنية، هو حديث غدير خم، مباشرة عقب حجّة الوداع وتمام بلاغ الرّسول لرسالته. ونصّه أنّ النبيّ "أخذ بيد علي فرفعها حتى رويّ بياض إبطهما، وعرفه القوم أجمعون، فقال: أيها الناس، من أولى الناس بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: إنّ الله مولاي وأنا مولى المؤمنين، وأنا أولى بهم من أنفسهم، فمن كنت مولاه فعليّ مولاه، يقولها ثلاث مرّات. ثمّ قال: اللهمّ وال من والاه، وعاد من عاداه، وأحبّ من أحبّه، وابغض من بغضه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وادر الحقّ معه حيثما دار، ألا فليبلغ الشاهد الغائب"، إلى آخر الحديث<sup>(2)</sup>.

ويرى الشيعة أنّ أمر الإمامة من الأهميّة بمكان بحيث ما كان يمكن للنبيّ أن يتغاضى عنه ولا يبيّنه للنّاس. إلّا أنّهم اختلفوا في تحديد عدد الأئمّة وهويّاتهم من نسل عليّ، فعددهم وفق الشيعة الإثني عشرية، اثنا عشرة إماما<sup>(3)</sup>، كما هو واضح من اسمهم. ولا يتسع المجال لذكر الخلافات بين فرق الشيعة، فهي مسائل تاريخيّة معقّدة، خاصّة وأنّ معظم تلك الفرق قد باد وانقرض، ولم يبق منها اليوم، بالإضافة إلى الإثني عشرية، سوى الإسماعيليّة والزيديّة وبعض الفرق الصّغيرة الأخرى.

وتجدر الإشارة إلى الفرق بين مصطلحين غالبا ما يقع الخلط بينهما، وهما "اثنا عشرية" و"جعفرية". فالإثني عشرية مصطلح كلامي عقائدي، أمّا

(2) لقد عني الشيعة عناية شديدة بتحقيق روايات حديث غدير خم، وتتبعها من مصادرها المختلفة بما فيها المصادر السنية. ومن أشهر الأعمال الموسوعية المعنية بهذا الحديث، كتاب "الغدير" للشيخ الأميني (ت. 1392 هـ)، في 11 جزءا، بيروت: دار الكتاب العربي، 1397-1977. وانظر أيضا: السيد علي الميلاني، حديث الغدير، قم: مركز الأبحاث العقائدية، ط1، 1421. وهو في جزء واحد ولا يخلو من صيغة جدالية.

(3) وهم علي بن أبي طالب، الحسن بن علي، الحسين بن علي، علي بن الحسين (السجّاد)، محمد بن علي (الباقر)، جعفر بن محمد (الصادق)، موسى بن جعفر (الكاظم)، علي بن موسى (الرضا)، محمد بن علي (الجواد)، علي بن محمد (الهادي)، الحسن بن علي (العسكري)، محمد بن الحسن (المهدي).

الجعفرية، فنسبة إلى المذهب الفقهي المنسوب إلى الإمام السادس جعفر الصادق، وهو المذهب السائد لدى الاثني عشرية في الفروع.

وفي هذه العجالة، لا يتسع المجال للتفصيل في حياة الأئمة وسيرة كل إمام، لذا سأتوقف عند ثلاثة منهم، وهم:

- الإمام الأول: أمير المؤمنين علي بن أبي طالب.

- الإمام الثالث: الحسين بن علي الشهيد بكربلاء.

- الإمام الثاني عشر: القائم المهدي المنتظر، صاحب الزمان.

وذلك لما يمثلونه من خصوصية ودور، وإن كان نور جميع الأئمة واحد من دون تفاضل فيما بينهم، من الناحية الكلامية والروحية.

### الإمام علي:

تزرخر كتب أهل السنة والشيعة بفضائل الإمام علي بن أبي طالب، من حيث تربيته على يد النبي، وسبقه في الإسلام، وجهاده، وعلمه وحكمته وبلاغته. وقد تعود الشيعة عند زيارة ضريح الإمام علي في النجف الأشرف، أن يقرأوا أوصافه كما يلي:

"السلام على خالص الأخلاء، السلام على المخصوص بسيده النساء، السلام على المولود في الكعبة، المزوج في السماء، السلام على أسد الله في الوغى... السلام على صاحب الحوض وحامل اللواء، السلام على خامس أهل العباء، السلام على البائت على فراش النبي ومفديه بنفسه من الأعداء، السلام على قالع باب خيبر، والداحي به في الفضاء... السلام على الناطق بالحكمة والصواب، السلام على من عنده تأويل المحكم والمتشابه وعنده أم الكتاب... "(4).

(4) مصباح الزائر، لسيد بن طاووس، في: مفاتيح، 650-651.

لا تنفق أهمية الإمام علي لدى الشيعة الإثنا عشرية عند هذه الفضائل والشّمائل الأخلاقية، بل تبني عليها وتتجاوزها إلى بعد روحاني ورمزي يشمل أيضاً بقیة الأئمة، باعتبارهم جميعاً نورا واحداً. وقد عبّر علماء الكلام الشيعة عن هذا الجانب بلغة قد تبدو صعبة أو مبالغاً فيها بالنسبة لمن لم يتعود عليها. فعلى سبيل المثال، جمع الشيخ سيد حيدر آملی (القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي)، في كتابه "جامع الأسرار ومنبع الأنوار"، جملة من الأقوال الحكمية في وصف العلاقة بين النبوة والولاية، وخصائص الولاية:

"وباطن النبوة هي الولاية المطلقة. والولاية المطلقة هي عبارة عن حصول مجموع الكمالات بحسب الباطن في الأزل وإبقائها إلى الأبد، كقول أمير المؤمنين -عليه السلام- "كنت ولياً وأدم بين الماء والطين"، وكقول النبي -صلى الله عليه وآله وسلم- "أنا وعلي من نور واحد"، وكقوله فيه "خلق الله روعي وروح علي بن أبي طالب قبل أن يخلق الخلق بألفي عام" الحديث. وكقوله فيه "بعث علي مع كل نبي سرّاً ومعني جهرّاً".

"ولاقتضاء هذه المرتبة قال أمير المؤمنين -عليه السلام- في خطبة البيان: أنا وجه الله، أنا جنب الله، أنا يد الله، أنا القلم الأعلى، أنا اللوح المحفوظ، أنا الكتاب المبين، أنا القرآن الناطق، أنا كهيعص، ألم ذلك الكتاب، أنا طاء الطواسيم، أنا حاء الحواميم، أنا الملقب بياسين، أنا صاد الصافات، أنا سين المسبحات، أنا النون والقلم، أنا مائدة الكرم، أنا خليل جبرائيل، أنا صفوة ميكائيل، أنا الموصوف بـ (لا فتى)، الممدوح في (هل أتى)، أنا النبأ العظيم، أنا الصراط المستقيم، أنا الأول، أنا الآخر، أنا الظاهر، أنا الباطن" إلى آخره<sup>(5)</sup>.

(5) جامع الأسرار، 382-383. "خطبة البيان" لم ترد في "نهج البلاغة"، وهو الكتاب الذي جمع فيه الشريف الرضي خطب الإمام علي وحكمه، ولكنها وردت بصيغ مختلفة في مصادر أخرى، وهي محل خلاف بين الشيعة من حيث صحة إسنادها، ومن حيث مضمونها "الصعب المستصعب" والتأويلات الممكنة له. وهي مقبولة أكثر لدى أهل الذوق الصوفي من الشيعة. قبلها من القدامى صدر الدين الشيرازي (ملا صدرا)، ومن المحدثين آية الله جوادي آملی على سبيل المثال.

نستنتج من هذا النص الغني بالإشارات والرموز:

- الصلة بين الإمامة والولاية، التي تمثل باطن النبوة، فالإمام وليّ الله مرتبط بالنبوة وليس مستقلاً عنها، حافظٌ لأسرارها، أمينٌ على خطّها التوحيدي ومبادئها الثابتة.

- الصلة بين الإمامة والقرآن الكريم، فلدى الأئمة علم تأويل القرآن، ومعرفة حقائقه العميقة. فالصلة وثيقة بين الإمام والقرآن، من حيث كونه قرآناً حياً، ومفسراً معصوماً قلبه، فالقرآن "لا يمسه إلا المطهرون"، (56: 79)، الذين صفت قلوبهم وخلت من الأهواء والمآرب.

- الصلة الوثيقة بين الإمام، باعتباره إنساناً كاملاً وخليفة الله، وبين الصفات والأسماء الإلهية، وهو ما يعرف بالتخلق بأخلاق الرحمن، والتحلّي بأسمائه الحسنى.

ولا ينبغي أن يؤخذ النصّ أعلاه على ظاهره، لأنّ ذلك يفضي إلى الحلول وهو مرفوض، ولكنّه خطاب شبيه بقول الحسين بن منصور الحلاج "أنا الحق"، أو كقول المسيح عيسى بن مريم في القرآن إني "أخلق"، و"أبرئ"، و"أحيي"، ولكن دائماً "بإذن الله"، الآية (3: 49). وكما جاء في وصف النبيّ محمد في القرآن "وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى"، (8: 17). وكما جاء في الحديث القدسي في وصف القرب بين العبد وربّه، "كنتُ سمعه الذي يسمع به، ويده التي يبطش بها، ورجله التي يمشي بها"، إلى آخره. بمعنى أنّ الإنسان الكامل المحرّر من ربة الأنانيّة وحجبها، تفنى إرادته في إرادة الخالق، ولا تعود له إرادة سوى إرادة مولاه، فيصبح العبد ربانياً في كلّ ما يفعل، ويكون حقاً خليفة الله في أرضه، ووسيلة طيعة للخيرات والبركات الإلهية على العالم، ورحمة للعالمين".

### الشهيد بكريلاء:

لعلّ مراسم العزاء والبكاء في عاشوراء من كلّ عام، خاصّةً في النّجف وكربلاء في السّنوات الأخيرة، هي المظهر الإعلامي الأكثر جذباً للأنظار لما يحتويه من مشاهد فلكلوريّة كالجلد ومحاكاة استشهاد الحسين وآله في طقوس هي أشبه بالمسرح الدّيني الشّعبي. هذه الصّور تجوب جميع أنحاء العالم عبّر الفضائيات، وتطرح أسئلة ملحةً حول حقيقة هذه الطقوس، وحول علاقة التشيع بالحزن والبكاء والآلام.

جاء في زيارة الإمام الحسين، للشيخ المفيد وسيد بن طاووس، في وصف الشهيد:

"السلام عليك ابن رسول الله، السّلام عليك يا ابن خاتم النّبیین، السّلام عليك يا ابن سيد المرسلین، السّلام عليك يا ابن سيّد الوصيّین، السّلام عليك يا أبا عبد الله يا حسين بن علي، يا ابن فاطمة سيّدة نساء العالمین، السّلام عليك يا وليّ الله وابن وليّه... السّلام عليك يا أمين الرّحمن، يا شريك القرآن، يا عمود الدّین، يا موضع سرّ الله، السّلام عليك يا ثار الله وابن ثاره والوتر الموتور، السّلام عليك وعلى الأرواح الّتي حلت بفنائك..."

"بأبي أنت وأمي ونفسي يا أبا عبد الله، لقد عظمت المصيبة وجلت الرزية بك علينا وعلى جميع أهل الإسلام... أشهد لقد اقشعرت لدمائكم أظلة العرش مع أظلة الخلائق، وبكتكم السماء والأرض، وسكّان الجنان والبر والبحر، صلّى الله عليك عدد ما في علم الله، لبيك داعي الله، إن كان لم يجبك بدني عند استغاثتك ولساني عند استنصارك فقد أجابك قلبي وسمعي وبصري..." (6).

(6) مفاتيح، 791-793. إن هذه الطقوس خاصّة بالشّعبة الإماميّة.

إنّ وقوف الحسين وآله وحيدين في كربلاء، ثم مقتلهم بمن فيهم الأطفال الرضّع، وأسر نساء آل البيت واقتيادهم في السلاسل إلى دمشق، يمثل مأساة صارخة قوية في ضمير المسلمين عموماً وشيعة آل البيت خصوصاً. ظاهرها الهزيمة والانكسار وباطنها انتصار الدم على السيّف، وروح رسالة محمّد على زيف الظلم والجور. الحسين يمثل الامتداد الطّبيعي والروحي للنبي محمّد، فقد تربّى في حجره، "حسين مني وأنا من حسين"، فدم الحسين في الضمير الشيعي هو التوقيع الدموي الذي يمنح الخلط بين الحق والباطل، وبين حقيقة الإسلام وأطماع التسلط وأحابيل السياسة. الدّم البريء الذي يصرخ في وجه الظلم ويفضحه إلى الأبد. لذلك فإنّ الموقف الحسيني ليس مجرد واقعة تاريخية لدى الشيعة، بل مبدأ يتجاوز حدود كربلاء والعراق، فـ "كل أرض كربلاء، وكل يوم عاشوراء".

### إمام الزّمان:

يعتقد الشيعة الإماميّة الإثني عشرية في إمامة محمّد بن الحسن العسكري، آخر حلقة في سلسلة الأئمة، الذي غاب على مرحلتين:

- غيبة صغرى بدأت منذ نعومة أظفاره بعد وفاة والده، وإلى غاية السّتين من عمره، وكان له في تلك الفترة نواب ينطقون عنه ويبلغون رسائله.

- أمّا الغيبة الكبرى فقد انتهت بوفاة آخر نائب من نواب الإمام، سنة 329هـ/939م. وبالغيبة الكبرى يفتتح "عصر الانتظار". فما معنى هذا الانتظار؟

على صعيد الفرد، الانتظار هو أمل كل إنسان في أن يلقي حقيقته الداخلية، ويجدد حياته عند لقائه مهديه بالروح، من خلال الرؤيا أو المشاهدة القلبية، ولم لا وجهاً لوجه! وبالتالي فإن الإمام ليس غائباً حقيقةً، فهو حاضر قائم، ولكنه محجوب عن نفوس الناس الذين لا يستطيعون "رؤيته" لتعطل ذوق الأمور القدسية في قلوبهم. لذلك فسّر بعض الشيعة الحديث



النَّبوي "من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة"، تفسيراً رمزياً مرتبطاً بمعرفة الإمام، والتي تعني عملياً التجديد الروحي وبلوغ الكمال<sup>(7)</sup>.

أمّا على صعيد الجماعة، فمعنى "الانتظار" هو الأمل في إحقاق العدل والكمال والسّلام والإسلام على الأرض وبين الناس. بمعنى أنّ الكلمة الأخيرة لن تكون للباطل ولا للظلم ولا للخديعة. "أن الأرض يرثها عبادي الصّالحون"، (21: 105). ولكنّ هذا "الأمل" يمكن أن يتحوّل إلى "كابوس" إذا ما استعمل استعمالاً سيّئاً لخدمة مصالح شخصيّة أو فئويّة.

كتب سيّد بن طاووس في "زيارة حضرة صاحب الأمر"، يصف الزّمان المهدي، وهو زمان "مسيحاني" شبيه بما نجده في أديان أخرى:

"السّلام على الحقّ الجديد، والعالم الذي علمه لا يبيد، السّلام على محيي المؤمنين، ومبير الكافرين... السّلام على المهدي الذي وعد الله عز وجل به الأمم، أن يجمع به الكلم، ويلمّ به الشّعث، ويملأ به الأرض قسطاً وعدلاً، ويمكن له وينجز به وعد المؤمنين..."<sup>(8)</sup>.

وهو وصف نجد نظائره عند الشّيخ الأكبر محيي الدّين ابن عربي، مثل قوله إنّهُ "من عترة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من ولد فاطمة، جدّه الحسن بن علي، يواطئ اسمه اسم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الخلق -بفتح الخاء- وينزل عنه في الخلق... يقسم المال بالسوية، ويعدل في الرعية، ويفصل في القضية... يظهر من الدين ما هو عليه الدّين في نفسه ما لو كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لحكم به. يرفع المذاهب من الأرض فلا يبقى إلّا الدّين الخالص... يفرح به عامّة المسلمين أكثر من خاصّتهم، يبایعه العارفون بالله من أهل الحقائق عن شهود وكشف وتعريف

(7) فسر هذا المعنى تفسيراً جيداً هنري كوربين، في: تاريخ الفلسفة الإسلاميّة، خاصة عند حديثه عن تفسير الشيعة، وهم من الشيعة الاثنا عشرية، لعقيدة المهديّة. انظر:

CORBIN Henry, *Storia della filosofia islamica*, Adelphi, Milano, 2000, 80.

(8) مفاتيح، 955-956.

إلهي. له رجال إلهيون يقيمون دعوته وينصرونه هم الوزراء يحملون أُنُقَالَ المملكة ويعيّنونه على ما قلده الله". وهذه الأوصاف الأخيرة لوزراء المهدي تذكرنا بما ينسبه الشيعة لنواب المهدي في غيبته الصغرى<sup>(9)</sup>.

### الإنسان الكامل:

إذا ما عدنا إلى مفهوم الإنسان في القرآن، لوجدنا أنه خلق من طين ومن نفخة من روح الله، "ونفخت فيه من روحي" (15: 29)، هذه النفخة هي بذرة الكمال بالقوة والإمكان داخل الإنسان من دون استثناء لقومية أو دين أو ثقافة. ومن هنا تتجلى كرامة الإنسان -كإنسان- وشرفه لدى الله عز وجل، "ولقد كرّمنا بني آدم"، (17: 70)، ولذلك فإنّ لهذا المخلوق المكرّم دورًا ورسالة في الأرض والتاريخ والحياة، "إني جاعل في الأرض خليفة"، (2: 30).

وعلى الرّغم من وجود النزعة الإقصائية l'exclusivisme في كل الأديان، بل في المذاهب المختلفة، حيث يؤكّد كلّ منها على انفرادها بالمعنى الأعظم للحقيقة دون غيره، فإنّه يمكن فهم العقيدة الشيعية في الإمامة والإنسان الكامل فهمًا يتسع للتعددية والتنوّع ويبتعد عن العنصرية الدينية والتعصّب المذهبي.

ومن هذا المنطلق، فإنّ تحديد الإمامة باثني عشر إمامًا لا يعني تحديد الولاية والكمال الإنساني في عدد محدود، بل إنّ كلّ إنسان، كما سبقَت الإشارة، يحمل في طيّات نفسه وسائل التّكامل والرشاد. وما الأئمة في المفهوم الشيعي إلّا النجوم الهادية بالنسبة إلى أتباع مذهب آل البيت إلى هذه السبل الباطنة في النفوس.

(9) يكشف نصر حامد أبو زيد عن بعض أوجه الشبه بين نظرة ابن عربي للمهدي وبين عقيدة الإمام الغائب لدى الاثناعشرية. النص المذكور لابن عربي من: الفتوحات المكية، القاهرة، 1274 هـ، 364/3-365، نقلا عن: أبو زيد، هكذا تكلم ابن عربي، الدار البيضاء وبيروت، ط2، 2004، ص ص 156-157.